

مصطلح الوظيفة والوظيفية، الاستعمال والمفهوم

الأستاذة: بلقاسم إيمان فاطمة الزهراء

جامعة تلمسان- الجزائر

Abstract :

The function and functional concepts have several uses of language, but he kept his lexical meaning. We will try in this research to discover this uses.

Key words : Lexical - function -functional- language.

يبدو من المهم تتبع معاني مصطلح الوظيفة والوظيفية في المعاجم العربية، فمادة (و ظ ف) في لسان العرب لابن منظور هي : « الوظيفة من كل شيء ما يقدر له في كل يوم رزق أو طعام، أو علف، أو شراب وجمعها الوظائف والوظف»¹. ويلاحظ هنا أن مصطلح الوظيفة حمل معنى التقدير والتعيين «ووظف الشيء على نفسه ووظفه توظيفاً، ألزمه إياه، وقد وظفت له توظيفاً على الصبي كل يوم حفظ آيات من كتاب الله عز وجل»⁽²⁾، جاء مصطلح التوظيف مصدراً للفعل وظّف بمعنى الإلزام وفيه تحديد للزمن أي إلزام الصبي حفظ مقدار معين من الآيات القرآنية كل يوم، والمدقق في المعاجم الحديثة يجدها قد احتفظت بهذا المعنى وطبّقته على المفاهيم الجديدة كتوظيف الشخص أي إسناد وظيفة له وتوليه عملاً محدداً بمدة زمنية ؛ فكلّما توصلنا لتحديد خصائص الشيء عرفنا وظيفته.

وقال الأصمعي : « جاءت الإبل على وظيف واحد إذا تبع بعضها بعضاً كأنها قطار، كل يعير رأسه عند ذنب صاحبه وجاء يصفه أي يتبعه. ويقال فلان يظفه وظفاً إذا تبعه، مأخوذ من الوظيف... »³، بمعنى تحديد الدور وهي جمع أوظفه، هذا المعنى الذي يرمز إلى نوع من السير، قد جاء في معلّقة طرفة واصفاً الناقة⁴ :

تباري عتاقا ناجيات وأتبعن وظيفا وظيفا فوق مور مُعبد

ويعتبر الرازي الإلحاق و الإلتباع معنى من معاني كلمة الوظيفة⁵.

وكلمة وظيفة يُوردها الزمخشري (ت 528هـ) بنفس المعاني السابقة إلا أنه يضيف لها المعنى المجازي بقوله⁶: « ومن المجاز: للدنيا ووظائفُ أي نوب ودول؛ قال الشاعر⁷:

أَبَقْتُ لَنَا وَقَعَاتُ الدَّهْرِ مَكْرُمَةً مَا هَبَّتِ الرِّيحُ وَالْدُّنْيَا لَهَا وَظْفُ⁸

و في التهذيب هي شبهُ الدّول، مرّةً لهؤلاء، جمع الوظيفّة⁹، أي جعلت وظيفةً للنّاس¹⁰

و إذا ما أسقطت هذه المعاني على اللّغة وجدناها تؤدي الوظيفة التّواصلية باعتبارها ظاهرة اجتماعية، تقوم هذه الوظيفة على أساس الدّور الذي تلعبه الوحدات اللّسانية داخل نظامها.

نجد في العصر الحديث أن لكلّ شخص دور معين ضمن وظيفة محدّدة، هذا التّوسع في استعمال لفظ الوظيفة جعلها صفة لكثير من العلوم الحديثة فهي تطبيق لكلّ ما هو نظريّ .

1- الوظيفة عند النّحاة القدامى :

_ سنحاول في هذا العنصر أن نستتير بما جاء في أقامات الكتب من إشارة تدفع في هذا الاتّجاه للدراسة الوظيفية.

لقد استقرّ في أذهان بعضهم أنّ النّحو العربي لا يُعنى إلاّ بالعلامات الإعرابية وأنّ هذه العناية تعدّ عميقة الجدوى، غير أنّهم تجاهلوا أنّ النّحو العربيّ نحو وظائف و بأنّ العلامات الإعرابية مؤشرات ودلائل على هذه الوظائف، بالرّغم من اشتراك العديد من الوظائف النّحوية في علامة واحدة، خصوصا المنصوبات.

فإشارة صاحب الاقتراح¹¹ لقضية الصلة الوثيقة بين المعنى و التركيب من خلال تعريفه للنحو مهمة، وهي القضية نفسها التي تدور حولها الدراسات النحوية الحديثة، خاصة لدى التحويليين، فقد أدرك السيوطي تلك الصلة المتبادلة بين صيغة النظم وصورة المعنى، فإن لم نفهم الوظيفة النحوية لمكونات التركيب والمغزى من وضعها على نظم خاص تعمّر فهم المعنى فهما كاملا، أي الصلة بين النمط التركيبي ومدلوله وبالمثل إذا لم يكن المعنى المطلوب التعبير عنه واضحا في الذهن بدرجة كافية صعب تحديد تركيب الجملة.

ولعلّ منتقدي النحو وبعدها وصلهم مكتملا من سيويوه إلى من جاء بعده لم يجدوا لأنفسهم مجالا في غير الشكليات، فذهبوا للسمة المميزة للعربية فركزوا جهودهم على ظاهرة الإعراب فحللوا وفتّقوا ليصلوا إلى نتيجة مفادها تحديد وإصلاح النحو وبالتالي إلغاء العامل ، وكأنّ مهمّة النحو هي بحث أواخر الكلمات، فمثلا باب المبتدأ والخبر تدور أبحاثه الرئيسة على التطابق والتقديم والتأخير والحذف، فمعظم هذه الأبحاث لا يتعلق بالعامل وضبط الأواخر، بل في الجملة وتكوينها.

يقول السيرا في عن النحو " معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوحي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ من ذلك، وإن زاغ شيء عن هذا النعت، فإنه لا يخلو من أن يكون سائغا بالاستعمال النادر والتأويل البعيد أو مردودا لخروجه على عادة القوم الجارية على فطرهم"¹² فالنحو عنده يبحث في الحركات والسكنات والحروف وتأليف الكلام فمهمته لا تقتصر على ضبط الأواخر من أجل العوامل.

وعلى رأس هؤلاء الأئمة عبد القاهر الجرجاني حيث ربط بين نظم الكلام وبلاغته ومعاني النحو ربطا وثيقا، وألح على هذه الفكرة في "دلائل الإعجاز"¹³ .

العلاقات بين الكلمات في الجمل تأخذ معناها من سياق الكلام إذ تقوم على أساس ظواهر شكلية تحكم العلائق بين الكلمات بعضها والبعض الآخر، وبدون وجود هذه الروابط تنفك العلائق بين الكلمات بعضها والبعض الآخر، ولا يستوي التركيب، فالوظيفة النحوية تتخذ لها طريقة شكلية للتعبير عنها واصطلاحها والطرق الشكلية تختلف حسب عرف اللغة واصطلاحها، كما تختلف باختلاف هذه اللغات، فبعض اللغات كما يقول فندريس " مثل اللاتينية latin وسيلة الشكل فيها هي الإعراب، وذلك بإلحاق لاصقة بآخر الكلمات تعبر عن وظائف الكلمات ففي حالة الرفع يلحق الاسم اللاصقة us وفي حالة النصب يلحق الاسم اللاصقة un ويمثل اللغويون ذلك من اللغة اللاتينية، الجملة التالية Cerdit Poalum Peirus يضرب بطرس بول، وبوجود اللاصقتين في الاسمين "بول- بطرس" يعرف أيهما الفاعل وأيهما المفعول، ومثل ذلك في العربية "ضرب محمد عليا" حيث يعرف بالحركات "الضمة والفتحة" أيهما الفاعل وأيهما المفعول، اللغات تتخذ لها وسيلة شكلية أخرى للتعبير عن الوظائف النحوية هي ترتيب الكلمات حيث يكون للترتيب قيمة نحوية لو تغير لتغيرت وظائف الكلمات فيها، وذلك مثل اللغة الفرنسية، يقول ساپير Sapir " يشتمل موقع اللفظ على قيمة وظيفية فبعض اللغات التي إذا كان لفظ فيها وظيفة فلا بد من مكان محدد يرصف فيها إلى جانب آخر، ولكن أغلبية اللغات كالانجليزية تتوسط هذين الجانبين¹⁴ .

2- الوظيفة بين المصطلح والمنهج:

لقد حدث لهذا المصطلح أن اشتقت منه صيغ جديدة، فهاهي ثلثة من العلماء ممن وضعوا المعجم العربي الأساسي يضمنون مصطلح الوظيفة الدلالات السابقة نفسها ويضيفون لها صيغا فرضتها العلوم حديثة "كعلم النفس الوظيفي، علم التربية الوظيفي، النحو الوظيفي.."¹⁵، وهذا من إبداع اللغة العربية فبفضل مرونتها

الاشتقاقية استطاعت سدّ الحاجة المصطلحية بتوليد اشتقاقات تستوعب جديد المدلولات وتتماشى مع التطورات العلمية والمعرفية التي أنتجت علومًا جديدة.

2- 1 الوظيفة عند المحدثين :

إذا رجعنا إلى معاجم والقواميس المتخصصة نجد أنها تعطي مقابلات لكلمة وظيفة باللغة الفرنسية والإنجليزية دون طرح معمّق لدلالة المصطلح، فيقوم المصطلح بذلك مقام ما يقابله في اللغة الأجنبية على وجه حرّفي، فالوظيفة " (Function-Fonction) هي الموقع الذي تأخذه الكلمة في الجملة بحسب الترتيب التحويلي، كأن تكون فاعلاً، مفعولاً، مضافاً، أو مبتدأ" ¹⁶.

الوظيفة هي التمييز بين الكلمات، حيث إن كل تغيير صوتي يتبعه تغيير دلاليّ، سواء أكان هذا التغيير الدلالي مباشراً مثل المعنى المعجمي، أو غير مباشر، وهناك من قال إن الوظيفة هي المعنى المحصل من استخدام الألفاظ أو الصورة الكلامية في الجملة المكتوبة أو المنطوقة على المستوى التركيبي أو التحليلي ¹⁷.

يفسر عبد الرحمن الحاج صالح الوظيفة بالعمل أو الدور المؤدّي، الوظيفة عنده نسبة إلى هذا، حيث يقول عن مدرسة براغ «أخصّ شيء يمتاز به هذه المدرسة عن غيرها هو اعتمادها الأساسي على الدور الذي تؤديه العناصر اللغوية في عملية التبليغ» ¹⁸، ولهذا سميت النزاعات المتفرعة عنها ومنها مدرسة مارتيني الفرنسية بالوظيفية ¹⁹، كما يميّز بين والوظيفة كعلاقة والوظيفة كدور، فالأولى "رابط بنيوي قائم بين مكونات الجملة أو مكونات المركّب في حين أنّ الدور يخص اللغة بوصفها نسقاً كاملاً" ²⁰.

وإلى هذا المصطلح تنسب مدارس واتجاهات لغوية بدأت تبرز مع ظهور مدرسة براغ تحاول أن تفسّر ظواهر اللغة من كل جوانبها ومن هذه الاتجاهات الاتجاه الوظيفي الذي يقف على الطرف النقيض للاتجاه التحويلي ²¹.

و هي المعنى المحصّل من استخدام الألفاظ أو الصور الكلامية في الجملة المكتوبة أو المنطوقة على مستوى التحليلي أو التركيبي²².

أما مصطلح وظيفي فله مفهومان تركيبي و فنولوجي، يتعلّق الأول بالعلاقات النّحوية الموجودة بين كلمات الجملة، سواء كانت كلمات أو مركبات أو حروف، أو بين جمل (كالروابط) ويتعلق الثاني بالوظيفة الخلافية التي تلعب دورا تمييزيا في تبليغ الرسالة، مثل الاختلاف الوظيفي بين P و b في اللغة الفرنسية²³.

وظيفي : يطلق هذا المصطلح على المنهج نفسه، كما يطلق أيضا على الطريقة التي تنتظم بها العناصر اللّغوية داخل المنظومة الصّوتية التي تشكّل بنية لغوية²⁴

2-2_ الوظيفية fonctionnalisme:

تطلق على المذهب الوظيفي في القرن العشرين، وتعد امتدادا للاتجاه العقلاني، وقد أطلقت الوظيفية في البداية على الهندسة المعمارية، وعلم الاجتماع، فهو مثالا يستمد مبادئه كمذهب من مسلمة ترى أن المجتمع هو كل عضوي، يتحقق من خلال الوظائف التي تؤديها عناصره المختلفة²⁵، ثم انتقل لفظ الوظيفية إلى اللسانيات فأصبحت تعني بصفة عامة الاتجاه اللساني الذي يربط دراسة العناصر اللغوية المختلفة (الأصوات الكلمات، التراكيب)، بالوظيفة التبليغية (fonction communicative) ثم انتقلت إلى اللسانيات التطبيقية، وتعليمية اللغات الحية بصفة خاصة، هناك أيضا الوظائفية تطلق على كل ما اتسم بالطابع الوظيفي أو العملي ، الوظيفي (fonctionnalité) هو الذي ينتمي إلى المذهب أو الاتجاه الوظيفي.

و الوظيفية هي نظرية لسانية، انبثقت من أفكار دوسوسير، وتجسدت في الأعمال التي أنتجت الفونولوجيا (مدرسة براغ)، وأعمال مارتيني ومدرسته في فرنسا،

فالوظيفية (أو اللسانيات الوظيفية)، ترفض دراسة اللغة كنسق صوري، يمكن أن يدرس اللغة في ذاتها، بمعزل عن وظيفتها المركزية، وهي التبليغ²⁶.

إذا، يتقَمَّص مصطلح "وظيفة" مداليل متنوعة بتنوع مشتقاته وإن حافظ على معناه المعجمي وهو القاسم المشترك فإن توظيفه في مجال الدراسات الحديثة قد اختلف.

11 - ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد التاسع، مادة (و ظ ف) ، 4869/6. وينظر: أبو الحسن علي ابن اسماعيل الأندلسي ابن سيده، المخصص، دار الكتب العلمية، لبنان، د.ط، د.ت، 313/12

2 - نفسه ، مادة (و ظ ف) ، 4869/6.

3 - نفسه ، مادة (و ظ ف) ، 4869/6.

4 - الزوزني (ت486هـ) ، شرح المعلقات السبع ، تحقيق : محمد علي حمد الله ، المطبعة التعاونية ، دمشق، 1383هـ- 1963م ، ص 38.

5 - الرازي، مختار الصحاح، ص 342.

6 - ينظر: أبو القاسم عمر بن أحمد الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998م، 343/2.

7 - نسبه صاحب لسان العرب للث 4869 /6 ،و ينظر : تاج العروس محمد مرتضى الزبيدي ،تحقيق مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، 1987م، 465/4

8 - البيت بلا نسبة في ، والمخصص 313 /12 ، وأساس البلاغة 343/2

9 - الأزهري، تهذيب اللغة، ص 189

10 - الخليل بن أحمد (ت175هـ) ، العين، العين ، تحقيق ا: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ، مؤسسة دار الهجرة، مطبعة صدر، إيران ، الطبعة الثانية، ص649.

11 - السيوطي، الإقتراح في علم أصول النحو ، د.ط، القاهرة ، ص 8

12 - أبو سعيد السيرافي ، الإمتاع و المؤانسة، 343/2

13 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: السيد محمد رشيد رضا، دار المعارف ، بيروت، 1982، ص 40

14 - Sapir, Language, An introduction to the Study of Speech, U.S.A. 1921, p: 66.

15 - ينظر: المعجم العربي الأساسي، أحمد العايد، أحمد مختار عمر، داود صالح جواد طعمه، مادة (و ظ ف)، المنظمة العربية للترجمة والثقافة والعلوم، توزيع لاروس، ص 1318

- ¹⁶ - ينظر: مبارك مبارك، معجم المصطلحات اللسانية، فرنسي-إنجليزي، دار الفكر، ط1، بيروت، 1995م، ص 184
- ¹⁷ - ينظر: فاضل مصطفى الساقى: أقسام الكلام العربي من حيث الشكل و الوظيفة، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ط، 1977م، ص 203.
- ¹⁸ - عبد الرحمن الحاج صالح، اللسانيات، المجلد الثاني، 1972م، 54/1.
- ¹⁹ - عبد الرحمن الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث، مجلة اللسانيات، الجزائر، مج2، ع1، 1972م، ص 54.
- ²⁰ - أحمد المتوكل، التراكيب الوظيفية- قضايا ومقاربات- دار الأمان، المغرب، ط1، 2005م، ص 23.
- ²¹ - يحيى أحمد، الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام في الكويت، نوفمبر - ديسمبر، 1989م، ص 69
- ²² - فاضل مصطفى الساقى، أقسام الكلام العربي من حيث الشكل والوظيفية، المرجع السابق، ص 203
- ²³ - Dictionnaire de linguistique, Jean Dubois et d'autres :, librairie Larousse, paris, 1973, p 219-217
- ²⁴ - نعمان بوقرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، ص 146
- ²⁵ - Voir : Le petit Larousse illustré, librairie Larousse, Paris, 1983, p : 233
- ²⁶ - Robert Galisson et Daniel Coste , Dictionnaire de Didactique des langues , Librairie hachette. Paris.1976, p 229